حقُّ الجوار

سؤال: أُهملت في الأيام الراهنة كثيرٌ من الحقوق، ومنها حقُّ الجوار، فما أهمية رعاية هذا الحق في الإسلام؟ وما ثمار رعاية هذا الحق في بناء مجتمعٍ صحيٍّ سليم؟

الجـواب: إن رعاية حق الجوار من الأمـور التي تحدث عنها القرآن الكريـم والسـنة النبويـة المطهـرة بدقّـة بالغة، وفـي هذا يقول ربنـا تبارك وتعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللّٰهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَـيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَـاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٣٦).

جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في الآية الكريمة تلو الأمر بعبودية الله ﷻ وعدم الإشـراك به، والواقـع أن حقّ الله تعالى يعقبه حقُّ رسـوله ﷺ علميًّا، وهو حقٌّ تكون مراعاته بمحبته وتوقيره واتباعه والشوق إليه؛ لأننا إنما عرفنا ربنا تبارك وتعالى بفضله ﷺ، وبه استطعنا قراءة الكون وتفسيرَه علـى النحـو الصحيـح، وبمـا حمله من رسـالة أدركنـا أننا خُلقنـا وبُعثنا إلى الدنيا من أجل حياة أبدية، فمنه تعلمنا الحقيقة؛ فنحن مدينون له بكلّ مـا لدينا؛ وإنما ذكرت الآية الكريمة حـقّ الوالدين في المرتبة الثانية لأنها تتنـاول المسـألة من الناحية العملية؛ وما يشـير إلى هـذا هو أن صدر الآية كان في الأمر بالعبودية لله سبحانه لا في الإيمان به.

ثـم أمـرت الآيـة -على الترتيـب- بالإحسـان إلى الأقـارب واليتامى والمساكين، وبعدها أوصت بمراعاة حق الجوار:

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾.

أمرت الآية بالإحسان إلى الجيران أقارب كانوا أم أباعد، من القريبين أو مـن البعيديـن، وهـذا يشـمل كل مَن قـرب أو بعد، ومَـن بجوارك عن يمينك ويسارك، ومَن هو أمامك أو خلفك ممن ينبغي الإحسان إليه.

مِن طُرُق الإيمان الكامل

فـي هـذا البـاب حديث صحيـح ذو قدر أخرجـه البخاري ومسـلم، يتحدث عن أهمية مراعاة حق الجوار، يقول سيدنا رسول الله ﷺ:

"مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"(٦١).

والورثـة هم الأقارب كالأصول والفروع والأزواج، فدلّ قول سـيدنا رسـول الله ﷺ -وهـو وحـي غيـر متلـوّ- علـى مـدى عظم حـق الجوار، ولا ندري ما وصايا جبريل عليه السلام لنبينا ﷺ فيها؛ لأن رسول الله ﷺ لم يفصّل في المسـألة، لكن هذا الحديث يدل أن جبريل عليه السلام قد أكثر في هذا حتى إن رسول الله ﷺ أشار إلى عظم هذه الوصايا وأهميتها بقوله: **"حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"**.

وثمة حديث آخر يعظِّم حقّ الجوار ويربطه بالإيمان:

"مَـنْ كَانَ يُؤْمِـنُ بِاللهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِـنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَـنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَـهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِـنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ فَلْيَقُلْ خَـيْرًا أَوْ لِيَسْـكُتْ"(٦٢)، يشـير الحديـث إلـى أن الإحسـان إلـى الجيـران من شروط الحصول على كمال الإيمان.

(٦١) صحيح البخاري، الأدب، ٢٨؛ صحيح مسلم، البر والصلة، ١٤١.

(٦٢) صحيح البخاري، الرقاق، ٢٣؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٧٧ (واللفظ لمسلم).

وثمة أمر آخر يستوقفنا في هذا الحديث الشريف: ذكرُ الإيمان بالله يتضمن أركان الإيمان الأخرى، ومنها الإيمان بالآخرة؛ فتخصيص الإيمان بالآخرة بالذكر لأنها دار الجزاء على ما يقدمه الإنسان من خير وبرّ في حياته، فكل إحسان هنا سيُضاعَف ويعود بالخير على صاحبه في الآخرة؛ فما خُصّ الإيمان بالآخرة إلا لأنها حوضٌ تجري إليه الحسنات، وتثمر فيها البذور التي زُرعت في الدنيا.

الجار الصالح بيده مفتاحُ السعادة الأبدية

في حديث آخر يقول سيدنا رسول الله ﷺ مُنذِرًا ومنبِّهًا: **"مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ"**(٦٣).

وذات يوم قال ﷺ: **"وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ!"** قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **"الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"**(٦٤).

إن في كثرة الحديث عن حق الجوار في الكتاب والسنة دلالة على عظمه وأهميته؛ فعلى المسلم إذًا أن يحتضن بمروءته كل جيرانه الأقارب والأباعد.

أجل، إن القلب المؤمن يتقاسم مع جيرانه كل ما لديه من جماليات؛ وهذا ما تقتضيه أخلاق المسلم.

وعندما نذكر حق الجوار يتبادر إلى الذهن أولًا الإطعام والسقيا والكسوة، ومعلوم أن الزكاة لا تجوز إلا للمسلم، لكن ما عداها من التبرعات يجوز لغير المسلمين، فمن الممكن التصدق على الجيران الأقارب والأباعد ولو لم يكونوا من المسلمين؛ فبهذه الصدقات تُقضى

(٦٣) الطبراني: المعجم الكبير، ٢٥٩/١؛ الحاكم: المستدرك، ١٥/٢.
(٦٤) صحيح البخاري، الأدب، ٢٩؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٧٣.

الحاجات الأولية للإنسان، فلا ينبغي أن نستسيغ ألبتة ترك الجيران -أيًّا كانوا- يتلوَّون من الجوع، خاصة إن كانت البلاد تمرّ بفقر وضائقة، بل لا بد من مساعدتهم كلهم.

ومن طرق الإحسان المهمة جدًّا اصطحابُ الجيران وإرشادهم ومساعدتهم في فرصة عمل يكتسبون منها.

ونُخطئ إذا حصرنا حق الجوار في الصدقات، فلمعاملة الجيران آداب مهمة للغاية ينبغي مراعاتها، منها تحيتهم عند لقائهم، والاطمئنان على صحتهم والسؤال عن أحوالهم، وتهيئة جوٍّ للتعارف بأن ندعوهم ونزورهم، وشقّ سبل تؤدي إلى التّحاب، وبذل الجهد في تنقية أذهانهم من الأفكار السلبية إن وُجدت.

وأخُص هنا المؤمن المغترب في بلد غير إسلامي، فمن المهم جدًّا أن يقيم علاقات مع جيرانه جميعًا، ويغتنم شتى المناسبات لزيارتهم وإدخال السرور عليهم بالهدايا ونحوها؛ فبهذا تستطيع القلوب المؤمنة أن تفتح قلوب جيرانها وتزيل ما لديها من مشاعر سلبية ضد الإسلام والمسلمين؛ وأجزم أننا لو نظرنا إلى المسألة من هذا الوجه فسندرك بشكل أفضل أن علينا ألا نحصر المسألة في دائرة ضيقة كالمساعدات المادية فحسب.

بيئة الذنوب مناخ للآفات

سُئِل رسول الله ﷺ: أَيُّ الذنب عند الله أكبرُ؟ قَالَ: **"أَنْ تَجْعَلَ لِلهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ"** قيل: ثم أيّ؟ قال: **"ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ"** قيل: ثم أيّ؟ قال: **"أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ"**(٦٥).

(٦٥) صحيح البخاري، التفسير، سورة الفرقان، ٢؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٤١.

نفهم من هذا الحديث أن الفحشاء التي حُرِّمت قطعيًّا يتضاعف إثمُها عندما تُرتكب بشكل يؤذي الجار، وهذا أمر آخر جديرٌ بأن نقف عنده.

معلوم أن المحرمات والمنكرات على دركَات، فَأَن يُسنَد إلى الذات الإلهية ما لا يليق أمرٌ منكرٌ أشار القرآن الكريم إلى عظم ذنبه، فقال:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (سُورَةُ مَرْيَمَ: ١٩/٨٨-٩٢).

ومثل ذلك منكرات أخرى تكاد السموات يتفطرن من اقترافها، منها زنا المحارم، وكذا الجيران كما دلّ الحديث، فإنه ذنب مضاعف أضعافًا كثيرة؛ لأن الشعور الذي لا بدّ أن يسود بين الأقارب والجيران هو الثقة والأمان، فأي خطيئة تقع من إنسان يُفترَض أنه أمين موثوق به ليست كغيرها، بل إنها تكبر وتتضاعف وتأخذ أبعادًا مختلفة.

جسور صداقة تُقام بسلطانية عاشوراء

المؤسف أن الحقيقة التي لا تُنْكَر هي حالة الانفصام الخطير في علاقاتنا بالجيران، فقِيَمُنا تشرذمت وتشتتت، حتى إن في العالم الإسلامي أناسًا محبوسين في عالمهم الخاص في بيوت كالعُلَب، لا يطرقون باب الجيران إلا للتحذير والإنذار أو للإعراب عن انزعاجهم من جلبة أو ضوضاء؛ فلنبذل قصارى جهدنا وكلّ إمكانياتنا للقضاء على هذه المشكلة، لقد غدت مرضًا مزمنًا في زماننا، ولكن لا ننسى أن تغيير المفاهيم والأفكار الراسخة لدى الناس ليس أمرًا سهلًا أو هيّنًا يمكن تحقيقه بسرعة وكأننا نخلع قميصًا ونرمي به جانبًا، فلنلحّ على هذا الأمر ولنبذل الجهد بلا ملل أو سأم، فلكم مثلًا أن تستغلوا يوم عاشوراء

لتهدوا جيرانكم سلطانيةً من حلوى العاشوراء، أو مناسبةً مهمة لجيرانكم كبعض أعيادهم لتتواصلوا معهم؛ وتعلمون أن الإنسان عبد الإحسان، وهو مخلوق كريم، فسيظهر صدى هذا الإحسان عاجلًا أو آجلًا؛ نعم، قد يختبرونكم فترة طويلة، لكن إذا أيقنوا أنكم لا تبتغون منهم أي منفعة فتحوا لكم أبوابهم رويدًا رويدًا، ثم تتزاورون.

عن أبي موسى الأشعري ﵁ أنه قال: "قال رسول الله ﷺ: **"المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا" وَشَبَّكَ بين أصابعه"**(٦٦)؛ وتشكيل مجتمع كهذا يقتضي أن نأخذ بأوامر الآية المذكورة في صدر الجواب من برّ الوالدين، وتعزيز الأواصر بين ذوي القربى، وكفالة اليتيم، ورعاية حقوق الجوار.

وإذا ما مُنيت علاقات الجيران بالخراب والدمار في بيئة الحياة الحديثة فقد لا تجدي نفعًا في البداية تلك الجهود المبذولة لتحسينها، لكن الإصرار والعزم على دوام الإحسان ولو لتطييب الخاطر سيذيب جبال الجليد بين الناس، ويفعل فعله في القلوب، ثم يغدو رابطة قوية تتشكل منها سلاسل مجتمعية متينة لا انفصام لها، وهكذا يناصر الأفراد بعضهم دون انتظار مقابل أو أجر، فإن سقط أحدهم أغاثه الآخر وأخذ بيده، وكأنهم في تنافس إلى الإحسان، ومنهم يتكوّن مجتمعٌ مثاليّ لا مجال فيه للعراك والتصادم والصراع.

ويرى بديع الزمان سعيد النورسي ﵀ أنّه يصعب أن تنشأ مجموعة صِحية عن مجتمعٍ تتألف جزيئاته من الذنوب، لذا كان من الأهمية بمكان أن يتعاون الأفراد فيما بينهم للوقاية من الذنوب وتلاشي الأخطاء، يقول الحق تعالى آمرًا المؤمنين في حديثه عن مسؤولياتهم تجاه بعضهم:

(٦٦) صحيح البخاري، المظالم، ٥؛ صحيح مسلم، البر والصلة، ٦٥.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٢).

إنّ العلاقة بين الجيران مسؤولية كبيرة ينبغي ألا نفرِّط فيها، وفرصةٌ مهمة لا بدّ من اقتناصها لإرساء شعور التعاون والتضامن الذي أمر به القرآن الكريم.

مرضٌ اجتماعي يشلّ العقل السليم: التعصب

سؤال: ما معنى التعصب؟ وما الفرق بينه وبين الصلابة في الدين؟

الجـواب: التعصب هو تقييم الإنسـان كلَّ شـيء وفقًـا لفهمه وهواه فحسـب، وإغفـال مقدمات الأمـر وخلفياته، والعنـادُ والتمـرد حتى فيما يخالف روح الدين والعقل.

وقـد عبر سـيدنا رسـول الله ﷺ عـن هـذا الأمـر بـ"العصبيـة"، مـن ذلـك قولـه: **"لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَـا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْـسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَـلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْـسَ مِنَّا مَنْ مَـاتَ عَلَى عَصَبِيَّـةٍ"**[٦٧]؛ إن التعصب مظهر سـلوكي يسـري فـي الـدم والأوردة، ويسـتمد طاقتـه مـن الجسـمانية والحيوانيـة، ولفظة "التعصـب" مـن باب "التفعـل"؛ أي فيها معنـى التكلف؛ ومعنـاه من هذه الناحيـة: العنـاد الباطـل إلى حدّ الإفراط في مسـألةٍ مـا، والإصرار عليها، وعزو كلّ شيء إلى هوى النفس، والتعامي عن العوالم المرئية والمسموعة وعدم الاكترات بها، واعتداد الإنسان بعلمه دون اعتبارٍ للآخرين.

نعم، التعصب سـلوكٌ مجافٍ للعقل والمنطق، والإحساسِ والشعور؛ فالمتعصب لا يمكنه أن يتصرّف وفقًا للعقل والمنطق، ولا أن ينفتح على المشاعر.

---

(٦٧) سنن أبي داود، الأدب، ١١١.

عاملٌ يحول دون إيمان الإنسان

لقد دأب أهل الإنكار والإلحاد على التعصب ضد المؤمنين، ففي عصر السعادة مثلًا كشف الكفار والمنافقون عمّا في صدورهم من تعصب على الإسلام والمسلمين، وتظاهروا بالعمى والصمم في أمرِ مَن هَوَتْ له النحوم إجلالًا وتعظيمًا مفخرةِ الإنسانية محمدٍ ﷺ، ولو أنهم أحسنوا النظر إلى فريد الكون والمكان عليه ألف ألف صلاة وسلام لرأوا ما رآه كلّ مَن أحسن النظر، ولو أصغوا قليلًا إلى دُرر كلماته لسمعوا ما سمعه مَن أحسن الإصغاء.

أجل، لو تدبر المنكرون والملحدون وتأملوا قليلًا في الحقائق التي بلّغها ﷺ لرأوا الحقيقة وأدركوها وسلكوا الصراط المستقيم، لكن يا للأسف لقد أعمى كلٌّ من التعصب والضغينة والحقد والكره أبصارَهم عن الحقيقة، وطمس كلّ الجماليات، فتردَّوا في الإنكار والجحود.

إن التقليد الأعمى للآباء والأجداد دون تمييز بين الحق والباطل يحول دون الدخول في الإيمان أو الثبات في دائرته، كما كان الكبر والطغيان والخلل في النظر حائلًا دونه؛ والحق أن مثل هذا التقليد الأعمى مظهرٌ من مظاهر التعصب، ففي الجاهلية كفر أناس بالإسلام وتصدوا له بالحجج الباطلة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، ولِفرط تعصُّبهم هذا صَدُّوا نبي الله ﷺ وأصحابه عن دخول مكة عام الحديبية لما خرجوا من المدينة معتمرين؛ وسمى القرآن الكريم موقفهم هذا: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/٢٦)؛ أجل، لقد سلكوا طريق التعصب وحالوا دون دخول المسلمين إلى مكة كيلا تُخرق عاداتُهم وتختلّ أعرافٌ ما زالوا يستمسكون بها، ويُجرح غرورهم وكبرياؤهم أمام القبائل العربية الأخرى.

وقد تقع مثل هذه الأحداث في عالمنا اليوم، فمثلًا إذا رغبتم في التعبير عن أنفسكم بخصائصكم التي فرضها الدين واقتضتها قيمُكم السماوية تجدون من يهبّ من فوره ويحاول منعكم في شدة وعنف لا يوصف، بل إن وضعتم خططًا ومشاريع للنهوض ببلادكم والوصول بها إلى مكانة تجعلها عنصرًا من عناصر التوازن الدولي أو إن أجهدتم أنفسكم لتجعلوا بلادكم من أعظم الدول سمعة ورفاهًا وقوةً عارَضكم بعضُ الناس وحاولوا منعكم متذرعين بأن هذا يمسّ عاداتهم وأعرافهم التي اعتادوا عليها، وقالوا للناس: "إنما يسعى هؤلاء للإضرار بقيمكم الذاتية؛ متذرعين بالسعي إلى الرفاه الاقتصادي ورفع مستوى الشعب إلى الذرى"؛ بل إنكم وإن لم تمسوا تابوهاتهم وأيديولوجياتهم فسيعتقدون أن أنشطتكم محاولة لمحوهم من ذاكرة الشعب واقتلاع القيم التي أرسَوها، ولسوف يرون في استحسان الناس لآرائكم وأفكاركم إعراضًا عنهم، والأدهى من ذلك أننا لو فرضنا المستحيل وقلنا إنكم عثرتم على مرقاةٍ تتخذون منها سبلًا إلى الجنة مباشرة لقال بعضهم أيضًا: "إن ما يقوم به هؤلاء محاولة للقضاء على أيديولوجيتنا"؛ ومردُّ كل هذه التصرفات والأفعال إلى تعصبٍ مقيت تغذّيه حمية الجاهلية.

مرضٌ مرعب يسري في كل مكان

كما يمكن أن تظهر هذه العادة الجاهلية في بلدنا قد تظهر في بلدان أخرى، ولك أن تقول: إن التعصب لا أرض له ولا وطن، فقد يُصاب كل الناس بهذه الصفة المذمومة على اختلاف أفكارهم ومناهجهم، بل قد يظهر أثر هذا التعصب على من يراه الناس متديِّنًا أيضًا؛ إذ بعضهم قد لا يهمه إرضاء الله تعالى، بل يتناول كل أمر في ميزان مشربه ومسلكه

الضيق مستندًا إلى معلومات أولية لديه، فيتخذ في كثير من المسائل الفرعية موقفًا فيه شدّة وقسوة وتعصب.

وما العمليات الانتحارية التي ترتكب باسم الدين في وقتنا الراهن إلا نتيجة لمثل هذا التعصب الأعمى؛ هذا إن فعل المنتحرون ذلك بمحض إرادتهم ولم يتعاطوا دواء أو ينوَّموا مغناطيسيًّا، ولم يُتحكم بعقولهم، أو تشل إرادتهم، ولم يُعاملوا معاملة الإنسان الآلي.

أجل، إنه مرضٌ تضيع معه حياة الناس المعنوية دون وعي إعلاءً لأمرٍ يظنونه حقًّا؛ والحقّ أنّ ذوي الأحزمة الناسفة قَتَلةَ الأبرياء دون فرق بين طفل أو شيخ أو امرأة يستحقون بعملهم هذا الترديَ في النيران لا التنعم في الجنان، فما أفجعها من عاقبة أن يتردَّى امرؤ في نار جهنم وكان بوسعه أن يسير في طريق الجنة ويرشد الآخرين إليه!

الثبات على الحق أو الصلابة في الدين

لا ينبغي للمؤمن أن يتعصّب؛ لأن المؤمن لا يحيد عن الحق، ورسالته هي إقامة الحق وإعلاؤه، فلا يمكن أن نتصور إنسانًا يعشق الحق، ومع ذلك يصدّ عن سبيله ويقاومه ويتجاهله؛ فإن فعل فقد أساء الأدب مع الحق، فالتعصب ليس من شأن المؤمن، بل الصلابة في الدين.

والصلابة هي الجدّ والحزم في الأمر، والثبات والتمكّن، والعزم على الاستقامة في الأقوال والأفعال والأحوال، أمّا العنف والقسوة والتعصب فليس من الصلابة في الدين في شيء.

الصلابة في الدين هي صدق وعزم جازم على تطبيق كلّ ما شرعه الدين الحنيف مهما تغيرت الظروف والأحوال، أي هي أن ينشد الإنسان رضا الله تعالى في تصرفاته وأفعاله كلّها حتى وإن انقلب العالم وتغيّر

الناس بأن أقبلوا على مباهج الدنيا الفاتنة، وأن يعمد إلى تطبيق أوامر الدين بلا تراخٍ، وأن يحافظ على الهوية أيًّا كانت الظروف والعوامل.

وبلوغ مرتبة الصلابة في الدين يقتضي أن يَجِدَّ المرءُ ليخرج من الإيمان التقليدي إلى الإيمان التحقيقي، وأن يسعى دومًا إلى التعمق في الحقائق الإيمانية، وأن يعرض كل مسألة على العقل والمنطق ليؤسسها على قاعدة "العلم".

فليلزم طالب العرفان التوكُّل على الله في كل حادث ألمّ به، وليستمسك بالتقوى، وليرعَ الأسباب، وليَخْطُ بحذر، فلا ينخدع، ولا تسُقه العواطف مطلقًا؛ لأن دائرة المعرفة الإلهية والمحبة الإلهية والعشق والاشتياق التي ارتسمت في روحه لها مركز يهديه الطريق في كل أمر؛ لذا فإن المقلّدين في تصرفاتهم وأفعالهم الذين تقوم حياتهم على النُّقول، هم من يتبدى لديهم التعصب.

أجل، إذا رغب المؤمن أن تَمضي حياته ضمن إطار الصلابة في الدين دون تردٍّ في وديان التعصب فليعرف وليستوعب جيدًا المقاصد الكليّة للكتاب والسنة بداية، وليقوِّم معارفه كلّها في ميزان هذين المصدرين الأساسيين، وليقارن ما فهمه من الكتاب والسنة بالاستنباطات والاجتهادات الصافية للسلف الصالح، أي فلينظر بعين الاعتبار إلى القدر المتفق عليه من تراث فحول العلماء وهو ما يمكن أن نسميه "الإجماع الضمني"؛ فإذا تحقّقَ هذا كله فليتضرع وليلتجئ إلى الله في كل خيار وقرارٍ قائلًا:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/٨).

ويُحمد من الصلابة قدر ما يذم من التعصب؛ لأن الصلابة في الدين هي استقامة المرء في تطبيق دينه، وجَلَدُه فيه، وتمكنُه ورسوخه فيه رسوخ الجبال؛ ومن العسير أن يَثبُت المتعصب في مكانه أو تَرسَخ قدمه حيث هو كما كان الأمر لدى ذي الصلابة في الدين؛ لأن حركة المتعصب وفق هواه ومشاعره، لا في ضوء العقل والمنطق؛ ومن يتعصب لأيدولوجيةٍ اليوم قد يأتي يوم يتعصب لأيدولوجية أخرى؛ من ذلك أن منهم من كان في فترة ما متعصبًا لأيدولوجيةٍ تَعدّ المادة والشهوة كلَّ شيء، وفي فترة أخرى نجده قد تأثر بالفلسفة الروحانية وشرع يسوِّق لها؛ أمّا المؤمن فمن شيمه أن يحافظ على القيم الأُمّ ويستمسك بها حيثما كان وفي أي وقت كان، في عصر السعادة أو في غيره من العصور.

أما مسألة تلبية الحاجات الناجمة عن تغير الأحوال والأزمان وما يلزم لذلك من اجتهاد واستنباط فهي أمر آخر لا يتعارض مع الصلابة في الدين؛ بل إنّ تغيّر الأحكام بتغيّر الأحوال والأزمان مع الوقوف عند الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح يعني التطور نحو الكمال، والقرآن يثبت أن لأهل العلم الاستنباط: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٨٣).

ولا ريب أن هذا التطور مغايرٌ تمامًا للخروج عن الهويّة، والأخذِ بالنظريات المستحدثة من أجل التودد للآخرين، والتعصبِ لأمرٍ دون النظر إلى معقوليته من عدمها؛ بل إن هذا التطور مؤشرٌ على عالمية الإسلام وشموله؛ إذ إن معناه وضع أحكام لأمورٍ لا تتناهى عن طريق نصوصٍ متناهية.

الفسق وسبل الوقاية منه

سؤال: ما معنى الفسق؟ وما الأمور التي ينبغي للمؤمن أن يراعيها ليبرأ من صفات الفاسقين؟

الجواب: الفسق لفظ عامّ؛ له عدة معانٍ، وهو بإيجاز: الخروج عن الحدود التي أقامها الدين، أي الخروج عن دائرة الطاعة بارتكاب الكبائر أو الإصرارِ على الصغائر؛ وهذا يذكّرنا بحديث سيدنا رسول الله ﷺ: **"اَلْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ"**[٦٨].

نعم، كما أن للدول حقولَ ألغامٍ تمنع دخولها، وتحظر على الناس عبور مناطق الأسلاك الشائكة، فكذلك وضعَ الشارعُ الحكيم حدودًا تقي الإنسان من المخاطر في الدنيا والآخرة، فمن تعدى هذه الحدود وتجاوز هذه السدود وانحرف وخرج عن الجادة فقد فسق.

وجاء في سورة المائدة ذكر من ساقتهم أهواؤهم، فتجاوزوا الحدَّ، وخرجوا عن دائرة الطاعة رغم أنهم عرفوا الصراط المستقيم:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٤٧).

(٦٨) صحيح البخاري، الإيمان، ٣٩؛ صحيح مسلم، المساقاة، ١٠٧.

وجـاء فـي اللغة أن "فواسـق البيـوت" حيوانات تخرج مـن جحورها وتضر الإنسـان والأثاث؛ ومنها: الفأر والعقرب والحية؛ فسـميت فواسـق لأنها بخروجها عن دائرة حدودها صارت معتدية، وفي الحديث:

"خَمْـسٌ فَوَاسِـقُ، يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَـرَمِ: الْحَيَّةُ، وَالْغُرَابُ الأَبْقَـعُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحُدَيَّا"(٦٩).

وليـس معنـاه: "اقتلوا هـذه الحيوانات حيـث وجدتموهـا"، بل معناه جـواز قتل حيوانـات يُخاف ضررهـا، فالأصل حرمة قتـل الحيوانات في الحَـرم، حتـى الجـرادة تُدفـع فيهـا الفديـة إن قُتلت؛ وإنمـا وُصفت هذه الحيوانات بالفاسقة لأنها لا تلزم حدودها بل تتعدّاها، فأُبيح قتلها، أي إن في الحديث رخصة بقتل هذه الحيوانات الفاسقة جبليًّا.

صفةُ الفسق عند المسلم

شـدّد القرآنُ الكريم في حديثه عن الكافرين والمنافقين والمشـركين على صفاتهم لا على أشـخاصهم، فلفت الأنظار إلى صفاتهم المذمومة؛ لأن التبليـغ والإرشـاد يُعنَـى بتغييـر الأوصـاف لا الأشـخاص، وذلـك بتخليتهم من صفاتهم المذمومة.

وهذا المنهج فيه ذِكرى ونذارة شديدة للقلوب المؤمنة، يقول الأستاذ بديـع الزمـان ﵀: "يجب أن تكون كلُّ صفةٍ من صفات المسـلم مسـلمةً مثلـه، إلا أن هـذا ليـس أمـرًا واقعًـا دائمًـا، أي قـد لا تكـون كل صفات المؤمـن مؤمنـةً، كما قد لا تكـون صفات الكافر جميعها كافـرةً ولا نابعةً مـن كفـره"(٧٠)، فقـد يحمـل المؤمـن صفـة من صفـات الكفر أو الفسـق

(٦٩) صحيح البخاري، بدء الخلق، ١٦؛ صحيح مسلم، الحج، ٦٧ (واللفظ لمسلم).

(٧٠) سعيد النورسي: الكلمات، اللوامع، ص ٨٥١.

في حقبة من حياته، وعلى هذا فكم في الآيات التي تتحدث عن المنافقين أو الكافرين من دروسٍ وعبرٍ للمؤمنين!

أجل، قد يكون الإنسان مؤمنًا يصلي ويصوم ويزكي ويحج إذعانًا لمقتضى إيمانه، لكنه إن خرج عن حدوده فقد يسقط دون وعي في وديان الكفر أو النفاق؛ إن من يرتكب آثامًا -نسأل الله السلامة- كالكذب والغيبة والإفك قد تجاوز السدود وحاد عن الجادة، وأخلّ بقواعد المرور؛ وهذا يعني أنَّه يحمل صفة من صفات الفسق مهما ادعى القوة في إيمانه؛ وما دامت فيه هذه الصفة فلن ينجح في مقام التبليغ والإرشاد ولن يبلغ الهدف؛ لأن فضل الله تعالى منوط بالصفات، ثم ينتقل إلى حَمَلَتِها.

من صفات المؤمن: الإيمان، والبلوغ بالإيمان مرتبة الإذعان، ثم الرقيّ به إلى أفق العرفان، وتتويج العرفان بالمحبة، والمحبةِ بالعشق والاشتياق إلى الله، وتعميقُ هذا الإيمان بالعبادة، وتزيينُ عبادته بمقام الإحسان... فإنْ تحلّى المرء بهذه الخِلال بلغ هدفه في إعلاء كلمة الله؛ بل وإن لم يبلغه فسيكافئه الله تعالى بعونه وفضله سبحانه وكأنه بلغه، فما على الإنسان إلا أن يقوم بوظيفته، فمن الأنبياء من لم يكن له أتباع قطّ، ومنهم من لم يتبعه سوى بضعة أشخاص، غير أنه لو وُضعت البشرية جمعاء في كفة ووُضع نبي من الأنبياء في كفة أخرى لرَجَحت كفة النبي، أي لو أننا أخذنا الناس كلَّهم سوى الأنبياء، واستخرجنا خلاصة قيمهم الإنسانية، وجعلنا منها تمثالًا، فلن يكون هذا التمثال تمثال نبي من الأنبياء ولن يبلغ ماهيتَه، لأنهم هم المصطفون الأخيار الذين اصطفاهم الله واختارهم على عينه ورعايته، ورغم هذا فقد يأتي النبي وليس معه إلا اثنان أو ثلاثة من الأتباع، ومع ذلك لم يكن هذا الأمر يعني لهم شيئًا، ولم يتوقفوا أبدًا عن أداء رسالتهم.

وقد تتبادر إلى الذهن بعض الأسئلة حول الغاية من إرسال رسول لا يتبعه إلا اثنان أو ثلاثة؟

ننوه أولًا أن مثل هذا النبي قد نال ثواب النبوة، وحظي بكرم الله وفضله لأنه أدى مهمته بحقّ.

وأيضًا إذا غدا هذا النبي مع أتباعه الاثنين أو الثلاثة رسالةً ومرجعًا لمن يأتي مِن خلفهم بأن عبّدوا لهم الطريق، ثم صلح بهؤلاء الخلف المجتمعُ لاقتفائهم آثار من قبلهم، فقد تحققت الغاية من إرسال هذا النبي واستُكملت؛ وسيُكتب مثل ثواب الخلف في سجل حسنات السلف؛ وغيرُ الأنبياء مثلهم في هذا، فلو لم يبذل الأستاذ النورسي مثلًا جهودًا مضنية لتبليغ القلوب حقائق الإيمان في عصرنا هذا، ولو لم يفتح مع مائة أو مائتين من طلابه جادةً للإيمان في قلب الأناضول، لما انشرح صدر رجل الأناضول الآن للخدمة القرآنية والإيمانية بهذه الدرجة، ولما ارتحل إلى أرجاء العالم كافة ليصل البقاع التي نُدِبَ إليها؛ فالمهم هو أن يسعى الإنسان إلى الهدف الذي يرمي إليه متحلّيًا بصفات المؤمنين دون ترقب نتيجةٍ أو ثمرةٍ لما يفعله.

زقاق مسدود سَلكه الفاسقُ

أما الفاسق فلو أن خط سيره في الحياة التقى بدائرة صالحة فقد لا تعجبه بعض الأشياء لمنابذتها لأهوائه، ويتطلع إلى أشياء أخرى، أي إن لديه آمالًا ومطامع لا حد لها وإن لم يعترف بوجودها؛ لكنه لا يجد غالبًا ما يلبي حاجاته وأهواءه، فيستاء ويمتعض ممّن حوله، ويقول -وكأن على الخلق جميعًا أن يعلموا جوّانيته-: "لم لا يستقرئون كنه فردٍ داهيةٍ مثلي، ولا يلبّون رغباته؟"؛ ثم يهجر رفقاء دربه من أجل تلك المشاعر والأفكار والآمال، وينصرف متذرعًا بحجج واهية، ويهمّ بعمل

أشـياء ترضي هواه، فهذا أيضًا نوعٌ من أنواع الفسـق؛ ولا جرم أن مثل هذا الإعراض والانفصال لا يعني الخروج عن الدين، ولكنه لما انسـاق وراء شـهواته وملذاتـه وهجـر سـبيل الخير والبـرّ، وعجز عـن أن يحافظ على المقـام والمنزلـة التي وهبهـا الله له، اندرج فيمن توعدهم سـيدنا رسـول الله ﷺ بإعراضهم عن الحلقة، فقد لفت النبي صلوات ربي وسـلامه عليه الأنظارَ إلى أهمية هذا الأمر، فقال عن الذي أعرض وانصرف ولم يدخل الحلقة: "**أَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**"[٧١].

أجـل، إن من الفسـق أن يتعلق الإنسـان بآمال عريضـة، وأن يعتقد أن النـاس لا يقْدرونـه قـدره ولا يعرفـون قيمته، وأن يرى أنـه أولى من غيره بالأجـر والجـزاء لما يتحلى بـه من مهارة وبراعة، فلا يقنـع بما في يديه، وكثيـرًا ما يسـوقه هـذا الأمرُ في الدنيا إلى نتيجة عكسـية تخالف مقصده؛ أما في الآخرة فسيُحاسب ويقال له: "لم تركت الجماعة، وعرّضتَ نفسك للذئاب كما الشاة القاصية؟".

وإذا لم يقتصر على هذا وشرع في الغيبة والنميمة هنا وهنالك في كبر وغـرور، فأوقـع الفتنة والفسـاد يكون بذلك قد شـوّه جماليات ناتجة عن جهود كثيرين ومساعيهم.

حبُّ المنصب ومداخل الفسق

أمـا أعظم الابتـلاءات في بيئة الفتن هذه فهو حـبّ الجاه والمنصب، والإنسان مجبول على هذا بطبعه؛ أجل، قد يُظهر القدَرُ إنسانًا أصغر منك بعشـرين عامًا ليقوم بمسـؤولية مـا، فمثلًا قد يكون لك السـبق في العمل

(٧١) إن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثةُ نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: "**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**" (صحيح البخاري، العلم، ٨؛ صحيح مسلم، السلام، ٢٦).

في مدرسة ما، ولكن القدر جاء بآخر مديرًا؛ نعم، على الرئيس أن يستشير من هم أكبر منه عمرًا وأسبق وأخبر، ليستفيد من تجاربهم وأفكارهم الراقية حتى لا تُجرح مشاعرهم، أما المرؤوسون فعليهم السمع والطاعة له أيًّا كان عمره أو خبرته، وإلا عدّ ذلك فسقًا، بل إنّ تخيّلَ ذلك وتصوره يعد نوعًا من الفسق؛ فعلى الإنسان أن يمرّن نفسه، ويصلح من شأنها على الدوام ليمنع الفسق من حق الحياة حتى في عالم خياله.

نذكر في هذا قصة سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما: لقد جهز النبيُّ ﷺ جيشًا لمحاربة الروم قبل ارتحاله ﷺ إلى أفق روحه، وعيّن أسامة بن زيد قائدًا للجيش، وأسامةُ يومئذ ابن الثامنة عشرة، ومن جنوده أكابرُ الصحابة عمرًا وفضلًا مثل سيدنا أبي بكر الصديق، وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما؛ ولم يبتعد الجيش عن المدينة قدر منزلة حتى أتاهم نبأ لحاق سيدنا رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، فقفل سيدنا أسامة راجعًا، وغرز الراية أمام بيت النبي ﷺ، وظل ينتظر، وقبل أن تُشيع جنازة رسول الله ﷺ اجتمع الصحابة رضي الله عنهم في سقيفة بني ساعدة، واختاروا أبا بكر رضي الله عنه خليفة للمسلمين، وما إن اختير أبو بكر خليفة للمسلمين حتى أنفذ بعث أسامة، وودعه حتى بلغ خارج المدينة، ثم اقترب منه -وكان أسامة في عمر ابنه أو حفيده- واستأذنه في عمر رضي الله عنه ليكون عونًا له؛ وهكذا على المؤمن أن يكون حتى يبلغ مثل هذا الأفق من التربية السامية.

أجل، لو عُين شخص في وظيفةٍ ما، فالسلوك الإيماني يقتضي التسليم بالأمر، وعدم الاعتراض والمخالفة -مع الحقِّ بل المسؤوليةِ في التنبيه والتذكير والإرشاد بأسلوب لائق عند وقوع أي خطأ- وإلا أضر هذا الأمر بالمجتمع الإسلامي، ويؤكد هذا قول رسول الله ﷺ:

"اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ"(٧٢).

نعم، إن التوفيق والنصر والنجاة والنجاح يكمن في هذا؛ وإلا فإن تعلق كل فرد بآمال وطموحات تخدم أهواءه وملذاته، وقع الفسادُ والهزيمة؛ فعلى الإنسان أن يشنّ حربًا على حب الجاه والمنصب الكامن في نفسه، وأن يقنع بالمقام الذي أقامه الله فيه، حتى يسد الباب دون الفسق والفساد.

(٧٢) صحيح البخاري، الأذان، ٥٤؛ صحيح مسلم، الإمارة، ٣٦-٣٧.

تفسير السنة وفق الأهواء والرغبات

سـؤال: نرى أناسًا إن اسـتهواهم شيءٌ قالوا فيه: "لو كان رسول الله ﷺ بين أظهرنا لفعل كذا"، وإن لم يسـتهوهم أصدروا حكمهم على الفور قائلين: "لا يقـول نبيُّنا ﷺ بمثل هذا"، فكيف تقيّمون هذا؟ وما الشروط التي يجب توافرها فيمن له حق الكلام في مثل هذا الموقف؟

الجواب: يختلف تقييم هذه الأقوال على حسب "مَن قالها؟" و"لماذا قالها؟"، فنبينا ﷺ رسـولٌ يبلِّغ رسـالة ربه ويبيّن المسائل ويوضحها بسنّته القوليـة والفعليـة والتقريريـة، وكان مجتهدًا في مسـائل الديـن أيضًا، فإن التعرّضَ إلى حلّ مشـاكل معينة وفقًا للظروف والأزمنة قائلًا: "إن رسـول الله ﷺ لو كان بيننا اليوم لفعل كذا في هذا الموضوع أو ملأ هذه الثغرة بهذا الشكل" قد يكون أمرًا لا حرج فيه؛ ولربما يكون لهذا القول محملٌ حسن؛ أي إن الزمـان هـو أبلـغ مفسـر للحوادث والأشـياء؛ حيث يقـوم بوظيفة المؤشر في تفسير بعض الأمور وتأويلها بحسب الظروف والأوضاع.

وبتعبيرٍ آخر ثمة مسائل دينية تخضـع للاجتهاد والاستنباط، وقد تُرك تفسـيرُها وتأويلها إلى الزمان ليفتي فيها، لكن يجب على من يقوم بتأويل هذه المسـائل وفقًا للأزمنة والظروف التي يعيش فيها أن يدققوا ويحققوا أولًا ويعلموا هل في الكتاب أو السـنة نصّ صريح متعلق بالمسـألة التي

يتناولهـا أم لا؛ لأنـه لا مَسـاغَ للاجتهـاد في مَـورِد النص، أيضًـا إن وقـع إجماعٌ من المجتهدين العظام على مسألة فمن غير المقبول مخالفة ذلك.

أجل، فالإجماع حجة، ومن أدلة حجّيّته هذه الأحاديث:

عـن ابـن عمـر رضي الله عنهما: أن رسـول الله ﷺ قـال: **"إِنَّ اللـه لَا يَجْمَـعُ أُمَّتِي (أَوْ قَـالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ) عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَـذَّ شَـذَّ إِلَى النَّارِ"**(٧٣).

وعـن أنـس بن مالك رضي الله عنه، عن النبـي ﷺ: **"إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلَافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ"**(٧٤).

وعن أبي بَصْرة الغفاري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **"سَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا"**(٧٥).

فـإن أجمـع أناسٌ سـلمت قلوبهـم وأرواحهم وعقولهـم ووجدانهم وحواسـهم الظاهرية والباطنية على حكم مسـألة ما دون غرضٍ أو انتظار أجرٍ، فالعقل لا ينكر صحة ما قرروا عليه، فكما لا تجوز معارضة الكتاب والسنة بالاجتهاد فكذلك لا تجوز معارضةُ الإجماع.

ومـن ثـم فـإن إظهار الـرأي اتباعًـا للهـوى دون النظر إلـى المصادر الأساسـية يختلف كثيـرًا عن إظهاره بالرجوع إلـى المُحكمات والمصادر الأصليـة، ولـذا لا بـد من الرجـوع إلـى الكتاب والسـنة والإجمـاع عند البحث عن حل أي مشـكلة فرديةً كانت أم أسـرية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصاديـة، فـإن لـم يوجد فيهـا حلٌّ لما نبحث عنه فعنـد ذلك لا بد أن نراعي ألا تخالف الآراءُ المطروحةُ المبادئَ الأساسيةَ.

(٧٣) سنن الترمذي، الفتن، ٧.

(٧٤) سنن ابن ماجة، الفتن، ٨.

(٧٥) مسند أحمد بن حنبل، ٢٠٠/٤٥.

لا بد أن ترتجف القلوب عند تقريرها لأي حكم

ويُشترط للاجتهاد فيما يتعلق بأيّ ناحية من نواحي الحياة أن يشعر المرءُ بالخوف والخشية من مخالفة المراد الإلهي وأن يرتجف قلبُه ويقشعر منها كما يُشترط أن يكون متخصصًا في العلوم الشرعية، وإلا فليس للذين يتساهلون في أمور الدين دائمًا ولا يسعون إلا ليقدره الناسُ قدره وليكون "مشارًا إليه بالبنان" أن يقولوا فيما تهوى أنفسُهم: "لو كان رسول الله ﷺ بيننا لقال أو لفعل كذا"، وفيما لا تهوى: "لو كان رسول الله بيننا لما قال أو فعل هكذا"، فكأنهم بذلك قد قدّروا -حاشا وكلا- نبيًّا فرضيًّا من تلقاء أنفسهم، وجعلوه يتكلم وفقًا لرغباتهم ويفتي حسب أهوائهم؛ أجل، ليس لأحد الاستهتار بأحكام الدين الذي يضمن لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

كان السلف الصالحون رضي الله عنهم يتحرون الدقة البالغة في مسألة الاجتهاد، فمنهم من إذا سُئل عن مسألة من المسائل الدينية ختم القرآن الكريم من أوله إلى آخره عدة مرات حتى يتمكن من الإجابة الصحيحة، وها هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان يناقش طلابه ويناظرهم بضعة أيام ليفتي في مسألة واحدة، وكان الطلاب قد يقتنعون بعد المناقشة برأيه فيقولون: "الرأي ما قلتَ في هذه المسألة"، ورغم ذلك كان الإمام يعيد النظر كرة أخرى في المسألة ويطالعها ويُجهد نفسه بالليل كثيرًا، ثم ينهض صباحًا، ويذهب إلى طلابه ويقول لهم: "لقد وافقتموني الرأي أمس في هذه المسألة، لكنني أخطأتُ حيث لم تخطر ببالي هذه النصوصُ"، ويُعرض عن رأيه من باب إحقاق الحق، ويؤثر رأي طلابه.

وثمة مثال آخر على إحقاق الحق وهو الإمام أبو الحسن الأشعري: كان ﵀ عليمًا خبيرًا بالكتاب والسنة، أوتي قوة البيان ومهارة الخطابة وبلغ في ذلك الوقت الذروة في العلم وارتقى أعلى الدرجات وذاعت شهرته في أرجاء المعمورة؛ وكان قد تبنَّى أفكار المعتزلة فترة، ثم ترك مذهبهم واعتنق مذهب أهل السنة والجماعة، فقال للناس: "كل ما قلتُه لكم في مسائل كذا وكذا خاطئ بالجملة، أما الصحيح فهو هكذا".

مَن اتّخذ إلهَه هواه

وللأسف الشديد ظهرت في هذه الأيام محاولاتٌ تفتقر إلى الجدّية فيما يتعلق بهذه المسالة، حتى إننا قد نجد أناسًا ينكرون أحكامًا بدعوى أنها لم ترد في القرآن الكريم، رغم أن القرآن الكريم نصّ عليها صراحة وجرى العمل بها في عهد الصحابة والتابعين.

وإنّنا وإن سكتنا حتى اليوم على هذه الترّهات تحفظًا منّا وحذرًا وعقدنا ألسنتنا إزاء ما يفعله من ينكرون هذه المسائل التي أجمع عليها السلف الصالحون، فإنّ حكم إنكار ما ورد نص صريح بشأنه معلومٌ لا يخفى على أحد.

وعلى ذلك فإن انعقد الاجتهاد على حلِّ مشكلة من المشاكل الفردية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية فلا بد من الاطلاع بدايةً وبشكلٍ جيدٍ على القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ومراجعةِ الآراء والأفكار النيّرة للسلف الصالحين فيما يتعلق بهذه المسألة، ثم البحثِ عما إذا كان لهذه المسألة نظيرٌ في المصادر الأصلية أم لا، وبعد ذلك نضع حلًّا للمشكلة، مع مراعاة الأزمنة والظروف التي جرت فيها.

فمثلًا يقول القرآن الكريم في زوجين فسدت العلاقة بينهما:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٣٥).

ويقول: **﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾** (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/١٢٨)، فيلفت الأنظار إلى مبدأ مهم وهو الصلح بين الزوجين.

وعلى نفس الشاكلة يقول تعالى في سورة الحجرات: **﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾** (سُورَةُ الْحُجُرَاتِ: ٤٩/٩).

وانطلاقًا من هذه النصوص نجد أنه من الممكن تطبيق هذا المبدأ بين الجماعات الكبيرة، بل وعلى مستوى العلاقات الدولية، لأنه إن كان الصلح خيرًا في الأسرة التي تشكّل أصغر جزيء في المجتمع فهو بين مختلف الشرائح والثقافات والتيارات والأمم أولى وأعظم خيرًا، فبقدر حجم المسألة تزداد أهمية الصلح؛ لأن فساد العلاقة بين الزوجين، واتجاه كل منهما إلى ناحية مختلفة يجعل الأولاد يعانون نوعًا من اليُتم والحرمان، أمّا إن اقتتلت طائفتان ولم نستطع أن نصلح بينهما فلكم أن تتصوروا حجم الخراب والدمار الذي يحلّ بالبلاد على مستويات مختلفة.

وعلى القلوب المؤمنة التي تنشد اليوم حلَّ المشاكل الاجتماعية على كل المستويات أن تتحرى سبلًا للصلح، وتمهِّد أرضيات للحوار، وتقيم منابر للسلم والتفاهم والتسامح، وتشكِّل -إن اقتضى الأمر- لجانًا للتحكيم، كل ذلك مع مراعاة متطلبات الظروف التي تعيش فيها وإمكانياتها.

عَـنْ عَمْـرِو بْنِ العَاصِ ﷺ أنه سـمـع رسـول الله ﷺ يقـول: "**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**"(٧٦).

أجـل، فإن اجتهد الإنسـان في سـبيل الدين وإحقـاق الحق نال ثواب اجتهاده حتى وإن أخطأ، لأنه أجهد نفسـه في هذا؛ وإن أصاب فله أجران على الأقل، وقد يتضاعف الأجر وفقًا لأهمية المسألة وصدق النية.

أما من يتناولون المسائل حسب أهوائهم ورغباتهم فيقول الله عنهم: ﴿**أَفَرَأَيْـتَ مَنِ اتَّخَـذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّـهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَـمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَـاوَةً فَمَنْ يَهْدِيـهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (سُـورَةُ الْجَاثِيَةِ: ٤٥/٢٣).

والحاصـل أن القـولَ الفصـلَ لله ثم لرسـوله ﷺ في حـلِّ كل القضايا الفرديـة والأسـرية والاجتماعيـة، فليـس للإنسـان فـي مـورد النـص إلا السكوت، وإلا فليعلم أنه قد اتخذ إلهه هواه.

(٧٦) صحيح البخاري، الاعتصام، ٢١؛ صحيح مسلم، الأقضية، ١٥.

دَور المرشد في حياة القلب والروح

سؤال: يزعم قومٌ أنه لا سبيل إلى النجاة إلا بمبايعة مرشد، فما رأيكم في هذه المسألة؟

الجواب: المرشد لغةً: مَن يجنّب الإنسانَ الطرقَ المعوجّة، ويهديه الطريق المستقيم، ويرشد القلوب إلى الحق تبارك وتعالى، ويُرهِف عقلَ المخاطب وشعورَه وسمعَه وبصرَه ببعض الحقائق ليوجِّهه إلى أفق القلب والروح؛ فكما يُطلق المرشد على الواعظ في المسجد والمتحدّث في مجلس العلم، فكذلك يصح إطلاقه أيضًا على تاجر يحدّث زبونه عن الحقّ والحقيقة فيصبغ قلبه بصبغة إلهامات روحه.

واصطلاحًا: سالكٌ انتسب في بداية سيره إلى مرشد أيضًا، فمرّ بما مرّ به كل سالكي طريق الحق من خلوةٍ وعزلة وأربعينات، وتحمّل المشاقّ، وقطع الدرجات في السير والسلوك الروحي، ولزم قلة الأكل والشرب والنوم، فوصل إلى رتبة الحيرة والفناء في الله وبلغ مقامًا مرموقًا في طريقه إلى الله، فأجازه مرشدُه في إرشاد الناس.

ويطلق الصوفية على الإذن للسالك بالإرشاد نيابةً عن مرشده: "الخلافة"، وعلى من أُذن له أو كُلِّف بذلك: "الخليفة".

ولعل مقصود السائل المعنى الاصطلاحي، فيحسن الوقوف قليلًا عند هذا الموضوع:

فراسة المرشد وقابلية المريد

منذ عهود طويلة نشأ رجالٌ عظامٌ وترعرعوا في ربوع طرق صوفية تصل بالناس إلى الحق والحقيقة، منها الطريقة النقشبندية، والقادرية، والشاذلية، والرفاعية، والبدوية؛ ومن السالكين من له قابلية واستعداد، فإذا ما عثر على مرشدٍ كاملٍ تنوَّر به فورًا ونوَّر مَن حوله؛ فهذا الشيخ "ألوارلي محمد لطفي أفندي" ووالده "حسين أفندي" لما وصلا تكية الشيخ "الكُفْرَوي" في بتليس للانتساب إلى طريقته عاملهما الشيخُ معاملة خاصة، وعهد لكليهما بالخلافة فورًا؛ وربما السبب أنه اكتشف ما لديهما من استعدادات؛ فتبرَّم به مريدو الشيخ، فلما أقبل الليل ضيّقوا الخناق على الوالد وولده، وأخذوا يحدثونهما بأسلوب فظٍّ غليظ، وإذا بالباب يفتح على مصراعيه، ويدلف إليهم الشيخ قائلًا: "يا أولادي، إن حسين أفندي ومحمد لطفي أفندي لا حاجة بهما إليّ، وإنما أَتَتْنَا بهما فضائلُهما وكمالاتهما".

أجل، ثمة استعدادات وقابلياتٌ مكنونةٌ لدى بعض الناس، يرتقون بها إلى مقامات عالية ودرجات معنوية مرة واحدة، وهذا يذكّرنا بقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٢٤/٣٥).

ومن المريدين من لديه قابلية واستعداد، إلا أنه يؤثر خدمة شيخه مدة أطول بصدق وإخلاص، فهذا مولانا خالد البغدادي حصل على إجازة في العلوم الإسلامية العليا، ورغم ذلك جاور في تكية السيد عبد الله الدهلوي عشرين سنة يخدمه؛ ثم عاد أدراجه إلى بغداد مرة أخرى؛ والشيخ خالد البغدادي يُعدّ مجدِّدَ عصره؛ ومشربه ومنهجه في الإرشاد

يكاد يخرج هو ومنهج الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ﵀ من مشكاة واحدة، فمما جاء في رسائل الشيخ البغدادي إلى مريديه: "لا تبتغوا أعمالًا تضطركم لاحقًا إلى دفع دية، واعتزِلوا الحُكَّام والرؤساء، ولا تَمُدُّنَّ أعينكم إلى ما في أيدي غيركم، واستغنوا عن الدنيا، ومن كانت له زوجة فهي حسبه ليتمكن من القيام بخدمة الإسلام..."؛ فإذا ما تأملنا خصائص كلماته وما فيها من حضّ على الإخلاص والصدق والأخوة والاستغناء نجد أن أصل الفكرة فيها وفي رسالتي الأخوة والإخلاص للأستاذ بديع الزمان سواءٌ؛ أترون كيف آثر رجل عظيم كهذا مجاورة تكية عشرين سنة يكنس أرضها.

حتى وإن كان المرشد كاملا

ولنرجع الآن إلى ما نحن بصدده؛ أجل، في تراث التصوف مقامُ مَن بلغه من المرشدين العظام تأمّل مريديه بفراسته، وقرأ قابلياتهم واستعداداتهم في وجوههم أو نظراتهم أو لمعان عيونهم، ووجَّهَهم إلى انكشاف هذه القابليات والاستعدادات؛ فإذا ما حان الأوان كلّفهم بالإرشاد في مناطق مختلفة.

وإن عثرنا في عهدنا هذا على مرشدين عظام على خطا الشيخ الجيلاني ومولانا خالد البغدادي ومحمد بهاء الدين النقشبندي وعلاء الدين العطار وأبي الحسن الشاذلي... فعلينا أن نأخذ عنهم العلم لتنكشف في حضرتهم قابلياتُنا واستعداداتنا؛ وليُعلَمْ أنَّ الحقّ ﷻ قد شرَّف أناسًا كثيرين في أزمنة مختلفة بحمل مهمة الإرشاد، وزوّدهم بأساليب متنوعة تتوافق مع مقتضيات عصرهم وحاجاته؛ وعلى ذلك يمكن أن يقال: لو أنّ السيد عبد القادر الجيلاني بين ظهرانينا اليوم، وأراد أن يطبق ما استلهمه من السنّة من منهج وأسلوب يتوافق مع مقتضيات ذلك الزمان وظروفه،

لَمَا استطاع أن يعثر بذلك المنهج على علاج لكل مشكلات زماننا؛ وهكذا الإمام الغزالي الصَّرحُ الذي لقبه الناس "حجّة الإسلام"، أعظم شاهد على صدق الإسلام وعلى أنه حقّ، لو أنه أراد اليوم أن يأخذ بحججه في مقارعة التيارات الباطلة التي كانت تهدد الإسلام حينذاك، لتكون وصفة طبية لمشكلات هذا العصر، لَما أغنت شيئًا في حلِّ مشكلات عصرنا المستعصية على الحل؛ ولا تذهبن بكم الظنون إلى أني أُلقي بالكلام جزافًا أو أسيء الظن بالسادة العظام -معاذ الله-؛ كلا، إن هذه القامات الجليلة قد أوفَتْ زمانها حقَّه بل أربَتْ؛ وإنما أريد أن أذكّر بأن شأن الرسالات السماوية ونحوها أن تأتي مناسبةً لأفكار المخاطبين وإدراكهم ومستوياتهم.

ولا ريب أنّ الناس في زماننا سيستفيدون من تلك الشخصيات العظيمة المذكورة وما قدمته للحياة الفكرية والمعرفية من مؤلفات قيمة، ولكن لا بد من أدوات وحجج مختلفة لدحض الكفر الناتج عن استخدام ما أفرزه الفنّ والفلسفة في أيامنا، ولِدحض ما نتج عن العناد والتمرد من كفر خفي وهو النفاق.

أجل، لا يستطيع حلَّ مشكلات اليوم إلا مرشدٌ يُحسن رؤية زماننا وقراءته، ويوجِّه مختبراته إلى مشكلات يومنا، ويستثمر كل إمكانياته ليصف علاجًا لمشكلاتنا؛ فإن وجدناه فلنعتصم به حتى نحلّق نحو أفق القلب والروح، فإن فعلنا ذلك استطاع هذا المرشد الكامل أن يفتح آفاقنا ويزيل عن طريقنا العقبات التي تعترضنا؛ لنقطع الطريق بأقصى سرعة وأكثر أمان.

لكن إن وجدنا مرشدًا كاملًا على هذا النحو يُحسِن قراءة العالَم ويقدِر على حلّ مشكلات عصرنا فلا ينبغي لأحد أن يضيّق واسعًا ويحصر أمر

الإرشاد فيه؛ أجل، لو أنكم عثرتم عليه ثم قلتم للناس: "إن لم تتبعوه ولم تصغوا إليه وتقرؤوا كتبه فقد ضللتم ضلالًا بعيدًا" فمعنى هذا أنكم ضيّقتم واسعًا، وأن أنانية الجماعة تحكّمت فيكم، وأسأتم الظن كثيرًا بالمؤمنين الآخرين؛ فلربما يكون فيهم من لا يفكر كما تفكرون ولا يسير على المنهج الذي تسلكون لكنه يقتدي بمرشد المرشدين وأكمل أهل الكمال وسيد السادات عليه الصلاة والسلام، فيدخل الجنة خالصًا مخلصًا بفضل الله تعالى وعنايته؛ نعم، حبُّ الإنسان نهجَه حسنٌ وأمرٌ مهم، لكن مِن الزيغ أن نضمر للآخرين حسدًا وحقدًا في قلوبنا أو أن تشيع العداوة والبغضاء فيما بيننا.

رمحٌ طعَّان في روح الوحدة

يُنسب للشيخ أبي يزيد البسطامي: "الشيطان مرشدُ مَن لا مرشد له، أو شيخُ مَن لا شيخ له"، يفسر بعضُهم هذا القولَ تفسيرًا ضيقًا خاطئًا، ويرون وجوب الانتساب إلى شيخ أو مرشد ذي طريقة صوفية؛ نعم، لقد أمضيت طفولتي في تكايا وزوايا عدّة، فكنت شاهد عيانٍ على بعض من يقولون مثل هذا الكلام.

أرى أن هذا القول ذو مغزى واسع، يشير إلى أهمية المرشد الكامل وضرورته، بيد أن تفسيره تفسيرًا ضيّقًا كهذا يجعلُه قولًا قبيحًا يغلبُ عليه سوء الظن وأنانية الجماعة، ويتعارض مع عالمية الإسلام وشموله؛ لأن بين أيدينا المبادئ الأساسية للكتاب والسنة، وهي تتسم بالسعة والشمول بحيث تشمل كل القلوب المؤمنة بها.

وقد ذكر الأستاذ النورسي ﵀ أن حصر الفكر ينبع من حُبّ النفس؛ أي إنْ زعم الإنسان أن الحق والصواب عنده فقط، فإن هذا نوعٌ

مـن الأنانيـة وحب الـذات؛ وله نوعٌ آخر، ألا وهو أنانيـة الجماعة؛ أي أن يعدّ الإنسانُ الحقَّ المطلقَ منحصرًا في أفكار الحركة والجماعة والطريقة التي ينتسـب إليها فقط، وما سـواها لهوٌ وعبث؛ إن مثل هذا التفكير إنْ هو إلا سوء ظنٍّ خطيرٌ قد يُودِي بصاحبه ماديًّا ومعنويًّا.

إن أنانيـة الفـرد تتعاظم أكثر بقدر اسـتنادها إلى أنانيـة الجماعة؛ نعم، يمكن للمنتسبين تقليديًّا إلى طريقة صوفية من الطرق الصحيحة المعروفة أو إلى حركة أو جماعة أن يروا منهجهم ومرشدهم على حقّ، وأن يحبوه حبًّـا عميقًـا، لكـن ليس لهـم أن يظلموا غيرَهـم بتضليلهـم، وإلا انحرفوا -وَهُمْ يسـيرون على الطريق السـوي- إلى سبيل الشيطان دون وعي؛ وقد يعمّ هذا الخطر الجميع، فلو أن بين ظهرانينا اليوم إحدى القامات العظيمة التـي أحترمهـا وأحبها حبًّـا جمًّا مثل الإمام الغزالي والعز بن عبد السـلام وفخـر الدين الـرازي ونجم الدين كُبْرى، وقال مثل هـذا الكلام، لأبديتُ له احترامي أولًا واضعًا رأسـي تحت قدميه ثم قلتُ: "لكنكم يا سـيدي قد جانَبكم الصوابُ في هذه المسألة".

والخلاصـة أنـه من الخطـأ الصِّرف الاعتقـاد بأن النجـاة لا تتأتى إلا بالانتسـاب إلـى حركة أو جماعة أو طريقة، أو أنـه من الضروري الاقتداء بمرشد معيَّن ذي طريقة صوفية وأن كل من لا ينتسب إليه ضالٌّ هالكٌ، إن من يعتقد هذا قد خسر حيث يُؤمل الفوزُ.

اللهم أجِرْ أمة محمد من انحرافات وآفات كهذه في أيام نحن أحوج ما نكون فيها إلى الوفاق والاتفاق.